بسم الله الرحمن الرحيم

في ذكرى
الأستاذ محمد كرد علي

أ. د. شوقي ضيف

وُلد الأستاذ الجليل محمد كرد علي بمدينة دمشق سنة ١٨٧٦ للميلاد، وكلمة (كرد علي) التي سميت بها الأسرة تركيب فارسي بمعنى «علي الكردي». وكانت من بلدة السليمانية في شمال العراق رحلت منها إلى دمشق وامتلكت بغوطتها أرضًا محدودة المساحة. وكانت أمه شركسية من قفقاسيا. بدأ تعلمه في مدرسة دمشق الابتدائية الحكومية في السادسة فتعلم بها القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب. وبعد إنهاء تعلمه بها دخل المكتب الرشدي العسكري الإعدادي وبه تعلم اللغة التركية، والتحق بعده بالمدرسة العازرية لمدة سنتين تعلم فيهما اللغة الفرنسية، وفيها تدرب على الترجمة من الفرنسية إلى العربية والعكس، وثقف الفارسية، وأخذ يعنى بالصحافة منذ السادسة عشرة من حياته وبالأدبين الفارسي والتركي، كما أخذ يرسل بمقالاته إلى الصحف المصرية وخاصة المقتطف.

وفي سنة ١٩٠١ هاجر محمد كرد علي إلى مصر والتحق بصحيفة الرائد المصري وحضر فيها مجالس الشيخ محمد عبده ودروسه، وأخذ يكتب في عدد من الصحف المصرية وخاصة: المقتطف والظاهر والمؤيد. وأصدر بمصر سنة ١٩٠٦ مجلة

المقتبس واشتهرت بما كتب فيها من المقالات الأدبية والاجتماعية وبها عدَّ أول رائد للصحافة السورية الحديثة وصاحب أول مجلة سورية أدبية راقية.

وفي سنة ١٩٠٨ حدث الانقلاب العثماني وخُلع السلطان عبد الحميد عن عرشه، فعاد محمد كرد علي من مصر إلى دمشق، وظل يصدر فيها مجلة المقتبس الشهرية، وأصدر فيها صحيفة باسم صحيفة المقتبس اليومية، ورحل إلى أوربا مرتين قبل الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين، وتعرَّف في رحلته الأولى إلى كثير من المستشرقين، ووصف هذه الرحلات في كتاب سمَّاه (غرائب الغرب) وهو أول كتبه النفيسة، وكانت تصدر مجلة المقتبس الشهرية التي نشرت له أبحاثًا قيمة في الأدب العربي، وفي التاريخ الإسلامي وفي التراث العربي القديم مما يجعله أحد كتاب العصر النابهين.

وفي سنة ١٩١٩ أسس الأستاذ محمد كرد علي المجمع العلمي العربي بدمشق وهو أكبر مؤسسة علمية بديار الشام منذ ذلك التاريخ، وأصبح رئيسًا له منذ تأسيسه، وظل ينعم برياسته إلى وفاته سنة ١٩٥٣ وأصبحت مجلته «المقتبس» كبرى مجلات الشام الأدبية، وأصبحت معرضًا حرًا ومنبرًا عامًا للحركة الأدبية في سورية وللأدب الرفيع.

ولما تولى الجيش الفرنسي مقاليد الأمور في دمشق سنة ١٩٢٠ تولى وزارة المعارف ثلاث مرات، وظل بها محتفظًا بكرامة شعبه الوطنية ونهضته التعليمية مشجعًا الشباب السوري على مواصلة التعليم ودراسة الآداب العربية، وكان يكثر من محاضراته في المجمع العلمي الذي استحال دار ندوة ثقافية كبرى للشباب السوري ولأهل البحث والدراسة.

ولما تأسس مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٣٢ كان الأستاذ الجليل

محمد كرد علي من أوائل أعضاء العرب الذي شملهم المرسوم الأول بإنشائه سنة ١٩٣٢ للميلاد، فهو أحد العشرة الأولى التي ضمت إلى العشرة المصريين المؤسسين لمجمع اللغة العربية المصري، وبذلك كان من كبار أعلام العرب اللغويين المؤسسين للمجمع. وبعد سنتين من إنشاء المجمع اللغوي يحييه الأستاذ محمد كرد علي تحية رائعة جاء في صدرها:

«سادتي: بتوفيق الله أتم هذا المجمع دور الرضاعة حولين كاملين واليوم دخل في دور الحضانة، يتعهده أولياؤه ببليغ العناية، ويربونه على نحو ما يُرَبَّى الطفل في خير البيئات، لأن حياته مما يهمُّ خمسة وستين مليونًا من العرب».

وتتوالى في أعداد المجمع التالية بحوثه اللغوية العلمية القيمة، وأول بحث نلتقي به في مجلة المجمع بحث بعنوان: «أفعال للاستعمال» وينقل عن كتاب الأفعال لابن القوطية الأندلسي أن الأفعال أصول مباني أكثر الكلام، ولذلك سَمَّتْها العلماء الأبنية، وبعلمها يُسْتَدلّ على كثير من علم القرآن والسنة. ويقول البصريون بقدم الأسماء، والكوفيون بقدم الأفعال ولكل وجه. ويكتب الأستاذ كرد علي في مقالة أكثر من عشر صفحات يذكر فيها أفعالاً مع أصولها المشتقة منها؛ وكأنه يريد أن يثبت في الأذهان فكرة اشتقاق الأفعال من الأسماء مثل أمَّر الأمراء، إذا ولاهم، ويذكر أفعالاً لا تثقل على الطبع ولا على السمع، وكأنه يريد أن يبعث فيها الحياة من جديد دالاً بذلك على سعة اللغة في الاشتقاق.

والاجتماع والأدب قد تصعب ترجمتها من الإفرنجية إلى العربية والعكس، فما كان من أصل إفرنجي وضعَ له اللفظ العربي، وما وجد في الأصول العربية شفعه باللفظ الفرنجي، وتوخى أن يجد مقابلاً لما خلت منه المعاجم العربية الفرنسية والفرنسية العربية ليكون عمله الفرنجي واضحًا لتلك المعجمات. وقد لاينطبق من

كل الوجوه اللفظ الذي وضعه للمعنى المراد في اللغة الثانية، لأنه من المتعذر في بعض ألفاظ نقلها إلى معنى مراده، وقد يأتي باحث آخر فيهتدي إلى لفظ أنسب، وتتوالى الألفاظ ومقابلاتها الأجنبية في نحو عشرين صفحة.

ولما قدم الأستاذ عبد العزيز فهمي إلى المجمع سنة ١٩٤٣ اقتراحه بالاعتماد على الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية لما فيها من صعوبة وعسر قال: إنّ العربي يقضي كل سنوات الدراسة في التعليم الأوليّ والابتدائي والثانوي والعالي والجامعي ويخرج بعد هذا الزمن الطويل لا يستطيع قراءة أي نص عربي مطبوع قراءة سليمة وهي مبالغة شديدة، ويقول: إن رسم الكتابة العربية هو الكارثة التي أحاطت بلغتنا وجعلتها من أسباب تأخر العرب. ويقول الأستاذ محمد كرد علي: إن الأستاذ عبد العزيز فهمي ينسى أن رسم الكتابة العربية ورثناه عن أجدادنا والقضاء عليه قضاء على تراث مهم للأجداد، ويقول: إن ذلك قد يؤول بنا إلى أن نستبدل بلغتنا لغة غربية، ويقول خصوم العربية: إن رسوم حروفها الهجائية وصعوبته هو سبب تخلف العرب، ولتخلفهم أسباب أخرى ليس من بينها صعوبة خطهم، والعربية تتسامى على جميع لغات المشرق، تتسامى على اللغة اليابانية بصورها وأشكالها المعقدة، كما تتسامى على اللغة الصينية التي قد تبلغ مئة ألف شكل، ولم يحل ذلك دون تعلم أهلها لها وتمسكهم بها كما يتمسك الغربيون بلغاتهم الحديثة. والعرب يتعلقون بلغتهم ويشغفون بها ويزدادون كل يوم حبًا لها وشغفًا، لأنها لغة قرآنهم المقدس. ولا ريب أن في اعتماد الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية تناقضًا مع الغاية التي أنشئ المجمع من أجلها، مع ملاحظة أن الحروف العربية ملك لجميع الشعوب الإسلامية، اختارها ثلاثمئة مليون من المسلمين، وإذا أبطلت حروفها تخسر مصر ويخسر العرب ويخسر الإسلام بفعل

نشر لغات أجنبية بين أظهرنا، وحري بنا أن لا نطيل المناقشة في هذا الموضوع.

ويعرض الأستاذ محمد كرد علي مقالة طويلة على المجمع يلم فيها بتطور بعض الألفاظ والتراكيب والمعاني، ويبدؤها بصيغ من الألفاظ المضافة والمنسوبة عند الثعالبي، وفيها ما يضاف إلى الله مثل: «كتاب الله»، و«رحمة الله»، وفيها ما يضاف إلى الأنبياء مثل: «سفينة نوح»، و«نار إبراهيم»، و«عصا موسى»، «وصبر أيوب»، «ومزامير داود»، و«خاتم سليمان»، ومنها ما ينسب إلى الملائكة والشياطين والقرون الأولى مثل: «سحر هاروت»، و«ديك الجن»، و«رؤوس الشياطين»، و«ريح عاد»، و«صرح هامان»، و«كنوز قارون»، و«سَدّ الإسكندر»، و«نوم أصحاب الكهف»، ومنها ما ينسب إلى المرأة مثل: «حمالة الحطب»، و«خضراء الدِّمَن»، و«ضرائر الحسناء»، و«كيد المرأة»، و«مرآة الغريبة»، و«بكاء الثكلى»، ومنها ما يضاف إلى الحيوان الأليف والوحشي، وإلى الجبال، والمياه، والثياب، والطعام، والشراب، والسلاح، والحلي، والليالي، والأزمان. وكل ما أتى به الثعالبي لم يخرج عن تراكيب عربية ولفظ عربي، ويقول الأستاذ محمد كرد علي: «إن الألفاظ والتراكيب تطورت في العصر أو نقلت الترجمة منها إلينا كثيرًا في أيامنا»، ثم يذكر نشره أو تحقيقه لخمسة من كتب التراث هي: كتاب «رسائل البلغاء» وفيه نصوص نادرة لعبد الحميد الكاتب ولابن المقفع، والكتاب الثاني «سيرة أحمد بن طولون» البلوي من أهل القرن الثالث والكتاب الثالث «المستجاد من فعلات الأجواد» للتنوخي من أهل القرن الرابع، والكتاب الرابع كتاب «البيزرة» لبازيار العزيز بالله الفاطمي، والكتاب الخامس «تاريخ حكماء الإسلام» للبيهقي وفيه كثير من ألفاظ الحكمة والفلسفة، ويسوق من كل كتاب بعض ما فيه من ألفاظ طريفة نسيناها، ونحتاجها اليوم أشد الاحتياج.

وتوقف الأستاذ محمد كرد علي طويلاً في الجزء السابع من المجلة ص ١٢٨ وما بعدها عند غرائب اللهجات العربية، وما أدخله كل قطر عربي على لهجته من ألفاظ كانت متأصلة فيه، ولاحظ أن أرباب اللغات تساهلوا في قبول بعض المفردات الدخيلة طوعًا أو كرهًا كأنهم رأوا أن لا مندوحة لهم عنها، وإن خرجت أحيانًا عن صيغة لغتهم، ولا ريب في أن اللغات تتطور عن هذا الطريق سريعًا مورِّثة لهجتها طائفة أو طوائف من الألفاظ الدخيلة، وكلما تقدمنا مع الزمن ازداد استعمال هذه الألفاظ الأجنبية الدخيلة. ويروى أن معاوية بلغه في حربه بصفين أن قيصر الروم ينوي غزو الشام فكتب إليه كتابًا موجزًا قال فيه: «لئن أتممت ما بلغني من عزمك على غزو الشام لأجعلن القسطنطينية حممًا سوداء ولأنتزعَنَّك من الملك انتزاع الإصطفلينة، ولأردنك أريسًا من الأرارسة ترعى الدوبل» وفي الخطاب ثلاث كلمات أجنبية: الإصطفلينة: وهي الجزرة، وأردّك أريسًا أي فلاحًا، والدوبل: الخنزير. ومن اللهجات ما راج في قرن وكسد في آخر، كانوا يقولون في القديم: فندق أو خان فأصبحوا يقولون: لوكاندة أو أوتيل، ويقولون في الشام شلَح أي خلع ثيابه وفي لبنان قلع ثيابه، وفي مصر قلع هدومه. وقد يهلك الناس بعضهم بعضًا بألفاظ لا يفهمونها، فإذا تفاهموا تعاطفوا وتعانقوا.

وعرض الأستاذ محمد كرد علي على المجمع اللغوي رأيه في المشروع الذي قدمه الأستاذ علي الجارم في تيسير الكتابة العربية وما اقترحه لها من صور جديدة ورسوم وخطوط، قائلاً: إنني لم أر في خطوط مشروعه إلا انتقالاً من بسيط إلى مركب، ويقول: إن الرسم الذي يكتب به الحروف في العربية ألفته العيون زمنًا طويلاً، واستبعد أن يقبل المجمع تبديلها بحروف لا حاجة

إليها، وقال إن الألفة التي صارت لنا لحروفنا تجعل من المتعذر أن نتدرب على غيرها في مدة وجيزة، وخطأ أن نعمد إلى التجديد في كل شيء.

ومن مؤلفاته:

١– خطط الشام (في ستة أجزاء):

تحدث فيه عن جغرافيتها من خليج العقبة جنوبًا إلى جبال طوروس شمالاً، وسكانها وكل ما يتصل بهم من حياة وعمران ودول إسلامية حتى نهاية الجزء الثالث، وكان منهم آراميون في الشمال وفينيقيون وسوريون في الوسط وكنعانيون في الجنوب، وسكن العرب قبل الإسلام في بعض ديارها مثل النبط والغساسنة وقضاعة وكلب، ويلقانا في جزئها الرابع العلوم والتاريخ والآداب والزراعة والصناعات والتجارات، وفي جزئها الخامس الجيش والأسطول والضرائب والأوقاف، وفي الجزء السادس الأديار والكنائس والمساجد والجوامع ودور الكتب والمتاحف والأديان والمذاهب.

٢– الإسلام والحضارة العربية (في جزأين):

يتحدث في الجزء الأول عن عناية العرب بالعلوم والفنون ومدنيتهم في الإسلام والحروب الصليبية والاستعمار وأثر مدنيته في العرب. وفي الجزء الثاني يتحدث عن علوم العرب بالتفصيل كعلوم الكلام والشريعة والتصوف والفلسفة، وعن الإدارة في الإسلام والسياسة.

٣– أمراء البيان عند العرب (في جزأين):

فيه يتحدث حديثًا مفصلاً عن عشرة من أعلام العرب وبلغائهم في العصرين الأموي والعباسي، وهم: عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف الكاتب، وإبراهيم بن العباس الصولي، ومحمد ابن عبد

الملك الزيات، والجاحظ، وأبو حيان التوحيدي، وابن العميد.

٤– المذكرات (في ثلاثة أجزاء):

وهي كتابات صحفية مقتضبة عن موضوعات متنوعة مثل: جامعة الدول العربية — المجمع اللغوي — الدستور السوري — الشاميون في مصر– لبنان — بعض شخصيات عربية وسياسية– الأمير فيصل — بطريرك الروم — مجالسنا النيابية– الإخوان المسلمون.

٥– أقوالنا وأفعالنا:

مقالات متنوعة صحفية مثل سابقه ومقالات عن حقوق المرأة، ومثل تمدننا– وطنيتنا– ماضينا– نهضتنا الأخيرة– حسنات الأزهر.

٦– الإدارة الإسلامية:

يبدأ هذا الكتاب بالحديث عن إدارة الرسول ﷺ ثم يتتبع الإدارات الإسلامية من عهد أبي بكر إلى عهد المقتدر الخليفة العباسي في صدر القرن الرابع الهجري.

٧– غابر الأندلس وحضارتها:

وفيه تحدث الأستاذ محمد كرد علي عن فتح العرب لها وعمرانها والعرب فيها، والنهضة العلمية بها، ومدنها المهمة، وقصر الحمراء، وسقوطها في أيدي النصارى، وعلم المشرقيات في إسبانيا والبرتغال.

٨– غوطة دمشق:

بساتينها– قراها– سكانها– زروعها– الجباية والأموال– العلم والأدب– المدارس والخوائق والزوايا– القصور– الجواسق.

هذا ما استطعت الوقوف عليه من كتب الأستاذ محمد كرد علي، وله وراءها كتب أخرى مثل: القديم والحديث، غرائب الغرب، وغير ذلك، وقد

أسهم في كثير من لجان المجمع بجهوده العلمية الطريفة كما في لجنة علوم الحياة والطب، ولجنة الآداب والفنون الجميلة، ولجنة العلوم الاجتماعية والفلسفية، ولجنة الأعلام الجغرافية.